

"تل أبيب": بين الزجاج الحضري والندبة الاستعمارية

ماعوز عزرياهو

أسيرة صورتها: موجز تاريخها وملامح شخصيتها لدولة تل أبيب

"تل أبيب"، دار "لامدا" بالتعاون مع معهد بن غوريون، 2021

238 صفحة (بالعبرية)

قراءة: سليمان التيهي، فلسطين

ثمّة كتب تقرأها فلا تفارقك بعدها، لا لأنها قدّمت إجابات، بل لأنها غيرت الأسئلة التي تطرحها على نفسك. "أسيرة صورتها" لماعوز عزرياهو واحدٌ من هذه الكتب، فهو لا يكتب "تل أبيب" بوصفها مدينةً يمكن وصفها وتوثيق شوارعها وأحيائها، بل يكتبها بوصفها جهازاً رمزياً يعمل على إنتاج معنى الدولة، ويُعيد رسم حدود الانتماء، ويمنح الشرعية لما يبدو في الظاهر مجرد عمران وأسماء وخرائط. لا تبدو المدينة هنا خلفيّة محايدة للأحداث، بل تقنية سلطة من الطراز الأول: تُعرّف من ينتمي ومن يُقصى، ما يُرى وما يُمحي، وما الذي يُسمح له بالتداول كـ"حقيقة" عن المكان.

يبدأ عزرياهو من وصف بسيط: "تل أبيب" "مدينة ضخمة، لكنّها في الوقت ذاته مدينة عشوائية". يبدو ذلك في الوهلة الأولى ملاحظةً عمرانية عابرة، لكنه يفتح بها ثغرةً تحليلية لا تُسدُّ حتى الصفحة الأخيرة. فالعشوائية، كما يُصرّ الكتاب، ليست نقيضاً للتخطيط، بل شكل من أشكال التنظيم عبر السوق: يُعاد توزيع الانتباه والتمويل والشرعية لا وفق الحاجات العامة، بل وفق قوانين الجاذبية التسويقية. هذا التمييز الدقيق بين التخطيط والتسويق هو ما يجعل الكتاب مثيراً للاهتمام منذ صفحاته الأولى، إذ يطرح تساؤلاً لا تُريحك إجابته: ما الفرق بين مدينة تُخطّط لصالح مواطنيها، ومدينة تُدار لصالح صورتها؟ ومن هنا يتأسس السؤال المركزي الذي يُقلق الكتاب من أوله إلى آخره: من يحكم الفضاء فعلاً؟ هل هو المجلس البلدي أم وكالات العلامات التجارية؟ وماذا يعني أن تُدار مدينة كحملة إعلانية، وأن يتحوّل المواطن فيها إلى "عميل" داخل سردية جاهزة لا يُسأل عن صياغتها؟

لن تجد في هذا الكتاب بحثاً عن اللحظة المؤسّسة بالمعنى العاطفي أو الاحتفالي. عزرياهو يعود إلى العام 1910،

إلى لحظة التسمية، لا لأنها بداية رومانسية، بل لأنها حدث بنوي غير طبيعة المكان من الجذور. حين أطلق اسم "تل أبيب" على ما كان حيناً على تخوم يافا، لم تتغير الأبنية ولا الشوارع، ما تغير هو الخطاب الذي يحمله المكان عن نفسه، وبالتالي ما يُطالب به من شرعية ومستقبل. "تل" تعني أثراً وركاماً وأركيولوجيا، و"أبيب" تعني ربيعاً وتجديداً وبعثاً. والتركيب بينهما ليس شعراً عفويًا، بل نموذج مكثف لآلية صهيونية متكررة: صناعة ماضٍ قابل للتمكُّ، وتقديم الحاضر بوصفه ولادةً ثانية لا قطيعةً مع ما سبق. الأسلاف يُستحضرون لا كتاريخ حقيقي، بل كرصيد رمزي يُضفي على المشروع عمقاً لا يمتلكه.

ولعل الأهم هو أن هذه "الأركيولوجيا اللفظية" لا تستعيد تاريخ المكان الفعلي، بل تستبدله بتاريخ متخيَّل قابل للإدراج في سردية السيادة. المكان الحقيقي يافا، بتاريخها المديد وسكانها الفلسطينيين وأسواقها ومينائها الذي يمتدُّ عبر قرون، يتحوَّل إلى مجرد خلفية تُكرِّس القطيعة ولا تستدعيها. والعنوان ذاته، المستعار من رواية تيودور هرتزل **الأرض القديمة الجديدة** (1902)، ليس اختياراً بريئاً، بل صياغة فلسفية لأيدولوجيا قادرة على التوفيق بين المتناقضات: حداثة تدَّي لها جذوراً، وجذور تُخترع لتبرير حداثة بلا تاريخ محلي فعلي.

يتبَّع الكتاب المسار الإداري والقانوني الذي نقل "تل أبيب" من هامش يافا إلى كيان شبه سيادي، مع تركيز واضح على لحظتين مفصليتين: الحكم الذاتي في العام 1921، ثم تأسيس البلدية الكاملة في العام 1934. شرطة بلدية، شعار، خرائط وحدود، وسردية هجرة ترى في المدينة نقطة دخول لا إلى "المجتمع" فقط، بل إلى الزمن السياسي الجديد بأسره. والفكرة التي يقترحها هذا التتبُّع دقيقة ومهمة: الدولة لا تُبنى دفعةً واحدة في العام 1948، بل تُجرَّب حضرياً، قبل ذلك بعقود، عبر جزيرة قانونية تستفيد من وسيط استعماري هو الانتداب البريطاني، لتكريس الفصل التدريجي عن مدينة فلسطينية قائمة وحيَّة.

وحين يصل الكتاب إلى النكبة وما تلاها، يبلغ ذروته النقدية. الاسم النهائي "تل أبيب-يافا" ليس ترتيباً لغوياً محايداً، بل ترتيب هرمي للتاريخ. اقتراح "يافا-تل أبيب" كان يعني ولو بالحدِّ الأدنى الاعتراف بسابقة مدينة أقدم وأعمق جذوراً، واعتماد العكس يكرِّس أن يافا ستبقى مضافةً تابعة، لا أصلاً مؤسساً ولا شريكاً متساوياً. ما يحتاجه التفكيك أكثر هنا هو إبراز العلاقة بين الاسم والخراب الفعلي: بعد العام 1948، لم تُمحَّ يافا سردياً فحسب، بل أُعيد تشكيلها ديموغرافياً ومادياً، وطُرد سكانها وهُدمت أحيائها وأُعيدت تسمية شوارعها. والتسمية المرَّكبة، في ضوء ذلك، لا تُقرأ كمجرد إجراء بيروقراطي، بل كغطاء بلاغي لعملية أعمق وأشدَّ وطأة: تحويل مدينة فلسطينية إلى "حي" داخل سردية حداثة يهودية، حيث تتكلم الشوارع والخرائط بلغة المنصر، ثم يُطلب من الجميع أن يتعامل مع ذلك كأمر طبيعي لا يحتاج إلى تفسير.

يمنح الكتاب جزءاً وافراً من صفحاته لتحليل ظاهرة "الفقاعة"، وهي الاستعارة الأكثر تداولاً في وصف "تل أبيب" الراهنة: مدينة تعيش داخل حصن نفسي من الاستمرارية، تُبقي الحياة اليومية دافئةً ومضاءةً بينما يشتعل كل شيء حولها. ولعل ما يُميِّز قراءة عزريها هو هنا أنه لا يقف عند إدانة هذه الاستمرارية أخلاقياً ولا عند مديحها

بوصفها مرونة إنسانية، بل يُحاول فهمها بنيوياً: الفقاعة ليست موقفاً شخصياً يتّخذها الأفراد بوعي أو بلا وعي، بل هي تنظيم مقصود للعاطفة السياسية على مستوى المدينة كلّها وعبر أجيال متعاقبة.

حين يصبح العنف "بعيداً" بما يكفي كي يُرى ولا يُعاش، تتحوّل الرؤية إلى تعويض أخلاقي كافٍ. أعرف أن هناك حرباً، أتابع الأخبار، أحياناً أتضامن على وسائل التواصل، لكنني أتابع حياتي أيضاً. وهذا بالضبط ما يسميه الكتاب "غشاء" الفقاعة: شفافية تسمح بالاطّلاع دون التورط، وبالمعرفة دون المسؤولية. "تل أبيب" تُنتج نموذجاً للمواطنة يقوم على تعليق السياسة داخل الاستهلاك: شاطئ، ومقهى، وحياء ليلية لا تنكر الحرب، لكنها تحاصر داخل إطار يمكن احتماله واستيعابه دون أن يُخلل بإيقاع المدينة.

تبلغ هذه الفكرة أقوى تجلياتها حين يستحضر الكتاب حرب لبنان الثانية بوصفها لحظة انكشاف حقيقية: يصبح خطاب الفقاعة موضع نزاع علني، ويصير "الطبيعي" استفزازاً ومثار جدل. لكن ما يثير السؤال الأعمق هو: هل الفقاعة مجرد موقف أخلاقي قابل للنقد والتغيير، أم أنها شرط مادي لإدارة دولة استعمارية-عسكرية لا يمكنها الاستمرار دون مركز اقتصادي مستقرّ نفسياً؟ ربما لا تكون "تل أبيب" "هاربة" من الدولة بقدر ما تؤدّي وظيفة بنوية لا غنى عنها، وهي: إنتاج مركز قادر على الاستمرار اقتصادياً ورمزياً مهما اشتعلت الهوامش. حينها لا تصبح الفقاعة انحرافاً عن الوطنية، بل شكلاً متأخراً ومُعقّداً منها: وطنٌ يُدار عبر توزيع الحياة والموت على الخريطة بدقة مدروسة.

وحين يتناول الكتاب احتجاجات العام 2011، يُضيف طبقةً ضرورية لا تُقرأ كملحق جانبي. الفقاعة ليست متجانسة من الداخل، وتُنتج السوق داخلها أشكالاً جديدة من الإقصاء لا تقلّ قسوةً عن الإقصاء الخارجي، بل ربما تزيد لأنها تجري تحت لافتة "الحرية". "العالمية" التي يفاخر بها الخطاب "التل أبيبي" تقوم على اقتصاد عقاري يُسوّق الهوية ويُعيد توزيعها وفق القدرة الشرائية. السكن، والإيجار، واللغة، ونمط الاستهلاك، والقدرة على الظهور في المشهد الثقافي... كلها تُشكّل بوابات دخول وخروج في اقتصاد المدينة الرمزي. فالحديث عن "مدينة ليبرالية" يحتاج إلى مساءلة جذرية: الليبرالية هنا ليست فقط قيماً ومواقف تُعلن في المهرجانات، بل نمط حكم حضري يفصل رأس المال ويُبعد من لا يستطيع الدفع دون أن يُسمّي ذلك إقصاءً.

في ما يمكن اعتباره المحور الأكثر نضجاً وأصالةً في الكتاب، يُقدّم عزريهاو أطروحةً تُزعزع من أساسها السردية المريحة عن "تل أبيب" "العلمانية بطبيعتها": "تل أبيب" لم تُولد علمانية، العلمانية صُنعت عبر صراعات طويلة على المجال العام، وما بات يبدو طبيعياً ومفروغاً منه اليوم لم يكن كذلك أبداً، ولم يترسّخ دون مواجهات متكررة وكلفة اجتماعية وسياسية.

"حروب السبت" تُقرأ هنا كمختبر لتشكيل "العادي": متى يُفتح المقهى؟ ما معنى الفضاء العام؟ من يعرّف

الراحة والقداسة ويملك صلاحية إلزام الآخرين بتعريفه؟ ما يبدو صراعاً على سينما أو متجر هو، في العمق، صراع على تعريف المجتمع وتحديد من يملك صلاحية رسم حدوده وإدارة وقته الجماعي. لكن قيمة هذه الأطروحة تتجاوز تاريخ العلمانية ذاتها، إنها تكشف كيف تعمل الهوية بوصفها أثراً للصراع لا كجوهر مُعطى سلفاً ومحمي من المراجعة.

تل أبيب تبني ذاتها دائماً عبر التمييز: ضدّ "التدين"، وضدّ "القدس"، وضدّ "الريف"، وضدّ "الشرق" حين تُستدعى العالمية بوصفها مرادفاً للغرب ومسافةً ثقافية عن المحيط الجغرافي. وهنا تظهر حدود سياسية تستحقُّ التأمل الصادق: العلمانية "التل أبيبية" ليست بالضرورة تحرراً من السلطة، بل إعادة توزيع لها في اتجاهات أخرى. فهي تُقضي الدين من المجال العام باسم الحرية، لكنها تُقضي الفلسطيني من المجال ذاته باسم الحداثة والمعيّار الحضاري. أي أن "التحرر" يعمل بشكل انتقائي ومُحدّد سلفاً: يفتح باباً في صخب ويُحكم إغلاق أبواب أخرى في صمت.

حين يُصوّر الكتاب "تل أبيب" كـ"مدينة عالمية"، فهو لا يتناول العالمية بوصفها قيمةً حضريّةً مكتسبةً عبر الانفتاح والتبادل، بل خطاباً دفاعياً وهجومياً في آنٍ واحد: دفاع عن الذات في مواجهة "إسرائيل" القومية-الدينية التي تُضيق عليها، وهجوم لإثبات تفوّق ثقافي يربط المدينة بنيويورك ولندن وبرلين أكثر مما يربطها بجوارها القريب، العربي والفلسطيني المُجاور جغرافياً والمنفصل رمزياً. هذا التفكيك يكشف وظيفة العالمية بوصفها إنتاجاً للهوية عبر المسافة المصطنعة: كلما اتسعت المسافة التخيلية عن المكان، أمكن تسويق السيطرة عليه بصورة أكثر يسراً وبدرية أكثر قبولاً. الكونية، هنا، ليست انفتاحاً بريئاً ولا إنجازاً ثقافياً صرفاً، إنها إستراتيجية لإعادة تعريف الانتماء، انتماء إلى "العالم" الذي لا يسأل عن المحيط، بدل الانتماء إلى جوار يفصح العنف المؤسّس ويُذكر به يومياً.

وثمة سؤال يحتاج الكتاب أن يواجهه بصورة أكثر صرامة وأقل تحفظاً: العالمية ليست مجرد خيار ثقافي تتبناه نخبة حضرية تتطلّع إلى الغرب، بل بنية داخل اقتصاد عالمي غير متكافئ تخدم أطرافاً بعينها. "تل أبيب" لا تدخل "العالم" من موقع محايد، بل من موقع دولة تمارس سياسات استعمارية وتستفيد من شبكات رأس المال والتكنولوجيا المُعوّمة التي لا تسأل عن مصادر الاستقرار. حين تُقدّم المدينة كـ"منارة" للقيم الليبرالية وحاضنة للإبداع والتنوّع، يصبح السؤال الذي لا مفرّ منه: من يُستثنى من هذه القيم داخل مجالها؟ وكيف تُستخدم صورة التسامح غطاءً لعلاقة المدينة بجهاز الدولة الأمني ومنظومة السيطرة المتشعبة؟ الكتاب يلّمح إلى هذا التناقض دون أن يقفز إليه مباشرة، لكن القراءة النقدية تُصرّ على أن ليبرالية لا تواجه استعمارها تتحوّل، شاءت أم أبت، إلى تزيين أخلاقي لهيمنة يجعلها أكثر قبولاً لا أقل.

لو جُمعت خيوط الكتاب في صورة واحدة متماسكة، لظهرت "تل أبيب" كصيغة مركّبة من السلطة المتداخلة: سلطة الاسم، وسلطة القانون، وسلطة الصورة، وسلطة العادي المتكرّر الذي لا يحتاج إلى إعلان عن نفسه لأنه يعمل بصمت. المكان ليس خلفية للأحداث بل مادة تُعاد صياغتها لتصبح برهاناً: برهان على حداثة الدولة وعلى

"طبيعية" مركزها وعلى إمكان الانتماء إلى الغرب دون حسابٍ للشرق القريب والمُهمِّمَن عليه. والهوية، بدورها، لا تُفهم كهوية سكان فقط، بل كهوية دولة تُختزل في مدينة وتحتاجها مرآةً تعكس ما تريد أن تراه في نفسها. لكن المرأة لا تعكس فحسب، إنها تحجب وتُشوّه وتختار.

وهنا تبرز حدود الكتاب المعرفية والسياسية في آنٍ واحد. عزرياهو قوي حين يفكك الخطابات ويقرأ الأسماء والخرائط والشعارات بعين تلتقط ما يقع تحت السطح. لكنه يُخاطر أحياناً بما يمكن تسميته مركزية "تل أبيب" التحليلية: تحويل المدينة إلى مفتاح تفسيري شامل لـ"إسرائيل" كلّها، بما قد يُهمِّش أشكالاً أخرى من السلطة والمقاومة خارج هذا المركز وبعيداً عن أضوائه، ويجعل المشهد بأسره يبدو وكأنه صراع بين "تل أبيب" والقدس، بدل أن يُرى بوصفه منظومة استعمارية-عسكرية تتجاوز هذه الثنائية المريحة وتسكن في كل الفضاءات دون استئذان.

ثمّة أيضاً ما يغيب عن الكتاب بما يكفي لأن يُلاحظ ويُساءل عنه: الفلسطيني الذي يتحوّل حضوره إلى أثر أو غياب داخل هذه الجغرافيا الرمزية لا يظهر بالقدر الكافي فاعلاً وشاهداً على تاريخه، بل يبقى في أغلب الأحيان موضوعاً لسردية الآخر وأداةً في خطابه. ويافا كذاكرة مقموعة تستحقُّ أكثر من إشارات عابرة تؤدّي وظيفتها ثم تُطوى: هل تُفكك المدينة علاقتها البنيوية بيافا فعلاً وتُحاسبها، أم يُكتفى بإحالتها كخلفية مفيدة تُؤكّد القطيعة وتمضي دون أن تُواجه؟ وأين تقع أدوات العنف المادي، لا الرمزي وحده، في حفظ هذا "الانفتاح" الذي تتفاخر به المدينة وتُسوِّقه للعالم؟ اختزال السلطة في التسويق والخطاب قد ينجح في تشريح قشرة المشروع وجعلها مرئية، لكنه قد يلين أمام بنيتها الأعمق والأصلب: دولة تُنتج فضاءها عبر قوانين وإكراهات وتاريخ من الإقصاء المادي لا يُستبدل بلغة السوق، بل يُعاد تدويره داخلها ويكتسب من خلالها مظهراً أكثر قبولاً.

مع ذلك كلّهُ وعلى الرغم منه، تظلُّ مساهمة عزرياهو الأساسية راسخة وجديرة بالقراءة والنقاش. "تل أبيب" ليست مدينة "تعيش خارج السياسة" كما تُحبَّذ أن تُصوّر نفسها، بل مدينة تُنتج السياسة عبر ادّعاء الخروج منها والتعالى عليها. الفقاعة ليست فراراً من الواقع، بل تقنية حكم ناجعة. والعالمية ليست انفتاحاً على الآخر، بل إعادة صوغ للمسافة منه. والعلمانية ليست جوهرراً موروثاً يُورث كالجينات، بل تاريخ صراع مُستمرّ يُستخدم اليوم لإقصاء انتقائي يختار ضحاياه بعناية ويُبرّر ذلك بلغة التقدّم.

في المسافة بين الزجاج والندبة، وبين الاحتفال والإنكار، وبين الواجهة المُعلّنة والجرح المُسكّت، تتبدّى "تل أبيب" لا كمدينة "لا تنام" كما يقول شعارها، بل كمدينة لا تستطيع أن تحلم إلا بشرط أن تُبقي أسئلة السلطة والمكان والهوية مؤجلةً إلى أجل غير مسمّى. وحين تُدار المدينة كعلامة تجارية وتُباع كفكرة جاهزة، يزداد التوتّر بين ما يُعرض وما يُعاش، وبين ما يتضحّم في المركز وما يُترك للهوامش لتحمله وحدها دون أن يُلتفت إليها. وفي هذا التوتّر بالتحديد، لا في حسم الأطروحة أو إغلاق السؤال أو تقديم إجابة مُريحة، تكمن قيمة الكتاب الحقيقية وأثره الذي لا يُمحي بسهولة.

غير أنَّ ثمة إشكالية منهجية جوهرية تتراكم على امتداد الكتاب ولا يُعالجها بما يكفي: عزرياهو يقرأ المدينة في معظم الأحيان من أعلى، من موقع المحلل الذي يُفكك الخطابات ويُشرِّح الأسماء ويتتبع القرارات الإدارية، لكنه نادراً ما ينزل إلى مستوى الحياة التي تجري تحت هذه الخطابات وفي مواجهتها. والنتيجة أن الفاعلية الإنسانية تكاد تغيب: السكان لا يبدون كأناس يتفاوضون مع المدينة ويقاومون بعض شروطها ويخترعون هوامش للعيش خارج ما تُملئ عليهم السردية الرسمية، بل يبدون كأدوات سلبية تتلقَّى الخطاب وتُعيد إنتاجه. هذا الغياب ليس هفوةً عابرة، بل يمَسُّ جوهر الأطروحة ذاتها: إذا كانت المدينة جهازاً لإنتاج الخضوع، فإن إغفال أشكال التشقُّق والمقاومة والتناقض الداخلي يجعل هذا الجهاز أكثر انسجاماً وأشدَّ إحكاماً مما هو عليه في الواقع. المدينة التي يرسمها عزرياهو ناجحة فوق طاقتها، متماسكة إلى حدِّ يُثير الريبة. وهذا التماسك التحليلي المُفرط يُفضي إلى نتيجة مفارقة: نقد يعكس، دون أن يقصد، شيئاً من المنطق الذي يُنتقد، إذ يُحوّل المدينة إلى نظام مغلق لا تسرُّب فيه ولا خلل، ويُغفل ما يعرفه كل من عاش في مدينة كبيرة: أن السلطة لا تُحكم قبضتها أبداً، وأن الصدوع التي تُخفيها الصورة هي في الغالب أكثر ثراءً وأكثر دلالةً من الصورة نفسها